(الـــوجـــــدان)

فائق بـطي
الوعي ٧ حزيران ١٩٥٨

لأهمية كتاب فائق بطي (الوجدان) الذي بث فيه سيرته الذاتية عبر نصف قرن من تاريخ العراق الحديث، آثرت (المدى) الثقافي أن تنشر بين وقت وآخر حلقات من هذا الكتاب. الذي سيصدر عن دار (المدى) بدمشق قريبا، لما يلقيه الكتاب من ضوء على مفصل مهم من نشوء الصحافة العراقية، وتطورها وأثرها في المعترك السياسي، واثر التحول من النظام الملكي إلى الجمهوري وما رافقها من أحداث وانقلابات. والكتاب من زاوية أخرى يكشف أسرارا وحلقات مؤثرة من تاريخ العراق السياسي والثقافي.

(المدى الثقافي)

ترك بغداد بعد تلك الحادثة الى القاهرة لتكملة ما تبقى له من الدراسة وهي اربعة اشهر. كان يفكر بالايام الحبلى التي سبقت الميلاد. ترى، ماذا سيحدث للوليد ان فقد الابوة؟ انه الآن عائد من ارض الثورة. لقد سبق له ان قال لزميله (فؤاد حسن) مازحا قبل السفر الى بغداد في الصيف، انه سوف يعود الى بغداد ويقوم بثورة عارمة. لم يكن في الحقيقة يمزح بقدر ما كان مطمئنا، بأن الشعب العراقي قادر على اجراء التغيير. انه يتحدى الزمن. ماذا سيقول لزميله حسن وبقية الزملاء. هل كانت (نبوءة)؟ تمر الاسابيع الثلاثة على الدوام الجديد..

في يوم الاثنين بالذات، ناوله العم عبدو، بواب الجامعة برقية من (كمال) يخبره فيها بعودة الجريدة الى الصدور. دبّ فيه النشاط، وبدأ بتزويد (البلاد) بسيل من المقالات والتحقيقات الصحفية والعديد من المقابلات السياسية والادبية. كتب عن مدينة غزة الصامدة بوجه اسرائيل وعن القاهرة التي لم يقهرها احد. اجرى اول مقابلة صحفية مع رئيس حكومة الجزائر المؤقتة، فرحات عباس. حاور احسان عبد القدوس واحمد بهاء الدين ومصطفى امين.

ذهب الى بور سعيد مع وفد الصحفيين العرب لحضور احتفالات النصر والجلاء. كان يدوّن انطباعاته وهو يستمع الى جمال عبد الناصر في خطابه الجديد، حين صحا فجأة من غيبوبة كانت قد انتابته عندما راح الرئيس المصري يهاجم بقوة الاحزاب السياسية في مصر وسوريا، ثم يعرج على العراق، ويهاجم ثورة تموز و(قاسم العراق). دهمه الخوف، وصرعه الألم، فطرق عائدا الى القاهرة.

في اليوم التالي، وجد نفسه في باحة الجامعة يطالع بنهم اخبار جريدة (الاهرام) وهي تصارع بعضها البعض وتتيه بين اكداس الحقائق والاكاذيب عن ثورة تموز وقادتها. من بعيد، لمح الزملاء محمد ابو نوار، فاروق قدومي وبشار سردست يسرعون الخطى نحوه. اعتقد في البداية انهم جاءوا اليه تحدوهم الرغبة في اجراء حوار سياسي حول تطور الاوضاع المستجدة داخل الوطن، خاصة، انهم يمثلون تيار حزب البعث لعفلق.

استل (بشار) ورقة من جيب سرواله الانيق، وسلمها بعصبية الى (محمد) مشيرا اليه بغمزة بطرف حاجبه، وقال:

- ماذا تقرأ؟

- اخبار الوطن يا بشار.

كانت كلماته حزينة، لكنها صادقة. اما ابو نوار، فقد تراشقت كلماته بغضب:

- اي وطن تتحدث عنه وقد سحقه المجرمون.

استنشق نفسا عميقا امتزج بحسرة مكبوتة، فخرجت العبارات متقطعة مرتجفة حائرة:

- ما هذا الكلام يا ابا جاسم؟

رد بشار بعصبية وعنجهية، لا يجيدها الا البعثيون والقوميون:

- اسكت.. انتم قتلة وخونة.

انتفض واقفا مشدوها ومستغربا الموقف، وقبل ان يبادر بالدفاع عن الثورة واصحابها، اخرج محمد الورقة ودفعها بوجهه متحديا وهو يصرخ:

- وقع على هذا التأييد.

- ما هي المناسبة؟

- استنكارا لابعاد عبد السلام عارف من قيادة الثورة.

التقط الورقة من الارض، وراح يقرأ مضمونها بصوت هامس: (..واستنكر بشدة اعمال الزعيم الاحمر قاسم العراق واعلن تأييدي للرئيس البطل جمال عبد الناصر والوحدة الفورية...)

التفت الى المجموعة وقال بشيء من التروي والحذر:

- يا اخوان.. ان معلوماتكم خاطئة، فلا قاسم احمر ولا الثورة حمراء ولسنا ضد الوحدة.

لوّح بشار بقبضة في الهواء. حدق في وجه (محمد) والشر يتطاير من عينيه، فصرخ فاروق:

- المسألة جدية.. وقع على الورقة والا...

لم يشعر بعدها الا والضربات تنهال عليه من كل اتجاه. صرخ في وجوههم من الألم:

- ما هكذا يا جماعة، عيب، نحن رفاق درب..

كان الألم النفسي اشد وقعا عليه من مفعول الصفعات والكدمات او الركلات. رأى في وجوههم الحانقة الملتوية الملامح، صورة الماضي وهو يستعيد بفخر منظر (الدونكي) وهو ينهال عليه بيد شرطي بغداد في ذاك الصوب، وما يتلقاه الآن باشمئزاز ضربات الاصدقاء والزملاء وهي تنهال على جسده المتعب. حاول ان يتفادى بذراعه المصاب، صورة الماضي في حاضره المشؤوم وهو يقاوم الاعتداء بلا جدوى. تركه (الابطال) القوميون وهم يسرعون الخطى الى خارج الجامعة، فغامت الرؤية. تمالك قواه ونهض باتجاه الشقة التي يسكنها القريبة من الجامعة. كان يقتسم السكن مع (غسان الخضيري) ابن السفير العراقي في مصر قبل الثورة، والطالب الفلسطيني (جواد بركات). لمحه (غسان) وهو يدلف الى غرفته، فسأله مستغربا:

- خير يا ابا غائب.. ماذا حصل لك؟

- تعيش وتأخذ غيرها يا غسان.

- اذن عملوها معك؟

- ...

- اما انا، فقد وقعت على الورقة وانا ممنون.

نظر الى ابن الخضيري مشفقا، حين جاء (جواد) مخاطبهما:

- هل تشربون القهوة يا جماعة؟

- احسنت يا جواد، مداخلتك جاءت في الوقت المناسب.

- ولو اخي.. الدنيا ما تزال بخير.

- خير يصيب كل الاحباب الطيبين ان شاء الله.

بعد القيلولة، كانت وجهته مقر رابطة الطلبة العراقيين. كانت خطاه تتثاقل تارة، وتسرع تارة اخرى. بين كل خطوة، كان يكرر مع نفسه: انهم يلعبون بالنار ولا يعرفون ماذا يريدون ولا ما يفعلون.

(المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة)

كتـــاب يعلمنـــا معرفـــة أنفسنا ودورنـــا وعلاقتـــنا بـــالـــوجـــود الخـــارجـــي

لندن. عواد ناصر

كتاب في غاية الأهمية من حيث دوره في إعادة الإعتبار للمنهج العلمي كنظرية معرفية للتوصل الى حقيقة العالم، أفقيا وعموديا، على الأرض وفي الكون البعيد، وهو أيضا في غاية البراعة من حيث منهج البحث والأداء لأنه يبسط عناصر العلم الرئيسية، جهد الإمكان، ليجعل الثقافة العلمية بمتناول الجميع ويمد المكتبة العربية بنوع مختلف من الكتب التي تراجع سوقها، مع الأسف، في العالم العربي لأسباب عديدة.

(البحث عن الحقيقة- الوعي البشري وحقائق الكون) هو عنوان الكتاب الذي وضعه الأستاذ عبد الله أحمد المعجل، ونشرته دار الساقي، وهو كتاب يبحث ويعرض مناهج المعرفة، المتناقضة والمفترقة، ويكشف وسائل كل فريق يعتمد منهجه الخاص لفهم العالم وتغييره أو التعبير عنه، والطرق المتباينة لإدراك الذات البشرية ومحيطها(الواقع المادي)، وقد انقسم العلماء والمفكرون منذ الإغريق حتى ثورة المعلومات والإتصالات الأخيرة الى مذاهب ومدارس واتجاهات متنوعة في الطريق الى حل معضلة الوجود البشري وعلاقة الإنسان بما يحيط به حتى كونه اللامتناهي.

بينما اعتقد الفلاسفة اليونانيون باعتماد الفكر المجرد (المنهج الدوغماتي) للوصول الى الحقيقة فإن العلماء المعاصرين نقضوا ما سبقهم، رغم تأسيسهم اللبنات الفكرية الأولى في علوم عدة، واعتمدوا أسلوب المختبر العلمي كمنهج وحيد لمعرفة العالم.

إن الفكر العلمي وهو يخوض معاركه عبر التاريخ البشري قدم إنجازات علمية هائلة وما يزال يعمل في مختبراته لتطوير ما أنجز و ما يمكن إنجازه مجددا، وقدم على هذا الطريق ثمنا باهظا حيث الصراع الأبدي بين الحقيقة العلمية والفكرة الدوغماتية المجردة التي تؤمن بحقيقتها الخاصة وتلغي كل ما عداها باعتباره خاطئا.

يتكون الكتاب من اثني عشر فصلا سنحاول التعرف بكل فصل رغم مشقة الإختصار والتكثيف في حيزنا المتاح.

الفصل الأول: المنهج العلمي والمناهج المعرفية الأخرى.

كل جماعة تلتقي حول فكرة معينة لها منهج معرفي تستقرئ من خلاله الواقع وتتوصل الى نتائج خاصة بها تعتقد بصحتها المطلقة من بين سائر المناهج والنتائج، بل يمكن القول إن كل فرد أيضا يمكن أن يقع ضحية قناعاته التي لا يقر بغيرها ولا يعترف حتى بوجهة نظر الآخرين. وأغلبنا يمارس عملية التوصل الى الحقيقة عبر حواسه الخمس وما هو خارج قدرتها يعد غير موجود، وهذا من أخطر ظواهر القرن العشرين الذي يعاني الصدامات والحروب والمآسي بسبب تناقض المصالح(نتيجة لتناقض المناهج المعرفية) كما يذهب الكاتب.

المنهج العلمي وحده، كما يحاول المؤلف عبر جميع صفحات كتابه، الذي بمقدوره أن يحسم الصراع انطلاقا من الحقائق المتولدة في المختبر العلمي.(إن صحة النظرية العلمية تستند الى أمرين أولهما: عدم تناقضها مع الفرضيات التي ابتدأت بها، وثانيهما: مدى تطابق نتائجها مع الملاحظة والتجربة العملية التي يمكن إدراكها بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال الحواس الخمس).

الفصل الثاني: منهج العلم ونسبية المعرفة

لأن ما نسلم به من حقائق قائم على فرضيات فإن هذه الحقائق نسبية ارتباطا بفرضياتها، مهما كانت قائمة على التجربة والملاحظة(التجربة والخطأ). يركز هذا الفصل على دور آينشتين ونظريته النسبية(بشقيها الخاص والعام) بعد أن بلغت نظرية نيوتن طريقها المسدود، ومن ثم (نظرية الكم) وهي ثمرة نظرية آينشتين النسبية التي حاز عنها جائزة نوبل وليس النسبية، لأنها تعد ثورة علمية هائلة (وتحديا جديدا لكل مناهج المعرفة والقناعات السابقة).

الفصل الثالث: المكان والزمان في منهج العلم

شأن أية نظرية أخرى(حسب النسبية) فالمكان والزمان أيضا متغيران.

(المكان يتكون من ثلاثة أبعاد وأجسادنا تتكون من ثلاثة أبعاد أيضا، ونحن لا نستطيع أن ندرك بحواسنا اكثر من ذلك).

هذا الفصل يشرح طبيعة الأبعاد الثلاثة في الكون ومدى مساهمة النظرية النسبية العامة في تحديد شكله.

أما الزمان(فهو يسير، بالنسبة لنا، باتجاه واحد) أي يمكن اعتبار الزمن هو البعد الرابع بالإضافة الى الأبعاد المكانية الثلاثة. وشأن النظريات الأخرى، حتى العلمية منها، فثمة حلقة مفقودة دائما.

هكذا يأخذنا الكتاب في رحلة ممتعة بين نظريات الفيزياء وهو يتعقب تطور منهج الفيزياء وصولا الى نظرية الأوتار (التي تنطلق من فرضية أن الجزيئات أو المكونات الدقيقة للمادة عبارة عن أوتار متناهية الصغر، بعضها مفتوح وبعضها مغلق، وإن ما نراه من واقع هو مجرد انعكاس لذبذباتها).

الفصل الرابع: الرياضيات والبحث عن الحقيقة

تعد الرياضيات أحد أشكال التجريد، شأنها شأن الموسيقى. وهي ليست علما(حسب إقرار الكاتب) إنما لغته. بدأت الرياضيات بالعد على الأصابع وانتهت الى الرياضيات المعاصرة(المجموعات والعناصر المنتمية لكل مجموعة) وقد درسها، أو مبادئها، أغلبنا في المراحل الثانوية أو الجامعية لاحقا.

يقول الكاتب:(شقت الرياضيات منذ بدايتها طريقين بديا منفصلين إلى أن جاء ديكارت بالهندسة التحليلية ليوحدهما، ثم جاء نيوتن وليبنتز بحساب التفاضل والتكامل ليقيما أسس الوحدة الشاملة للرياضيات.

الخط الأول: كان رواده علماء الحضارة اليونانية والخط الثاني مثله رواد الحضارة العربية الإسلامية ممثلا بعلم الجبر والمثلثات).

طبعا يتميز هذا الفصل بالبحث عن علاقة الرياضيات بالواقع وتداخلها مع العلوم الأخرى كالفيزياء مع ضرب الكثير من الأمثلة.

الفصل الخامس: منهج الإشتقاق والثورة القادمة

وهو باب يبدأ بمدخل رياضي أيضا بشأن صدق أو كذب الجمل حسب علم المنطق.

كما يشرح المؤلف علاقة الحاسوب بالإنسان وهل يحل أحدهما محل الآخر؟

الجواب يتعلق بقدرة الوعي البشري على الإبتكار ومن ثم الإشتقاق وتجديد علم المنطق. يقول المؤلف: (ربما سنعيد تشكيل السؤال مستقبلا في محاولة لمعرفة كينونتنا بعد أن تتخطى ممارساتنا ما يسمح به حدسنا).

الفصل السادس: علم الحياة

جاءت النقلة النوعية في تحويل ظاهرة الحياة(الأحياء) الى علم على يد داروين في نظريته(النشوء والتطور) (لكن الثورة الحقيقية تمثلت في الحامض النووي، المكون الرئيسي للحياة).

يعلمنا الكاتب بأن الفضل في هذا يعود الى كل من العالمين كريك وواتسون عام ١٩٥٢. ثم يقول(إن أساس الحياة هو مركبات كيمياوية تستنسخ نفسها بشكل مستمر، ولحماية مسيرة هذا الإستنساخ تبتكر هذه المركبات الطرق الكثيرة لتكوين أوعية تحمي العملية وتضمن استمرارها، وما أجسادنا وأجساد الحياة الأخرى من نبات وحيوان إلا هذه الأوعية).

الفصل السابع: خريطة المورثات أو الجينوم

في هذا الفصل يتناول الكاتب مفهوم المورثات البشرية(الجينات) باعتباره(من أعظم ما حققه العلم في القرن المنصرم(القرن العشرين).

وكما درس أغلبنا أيضا في الثانوية أو ما بعدها الكروموسومات التي نرثها من الوالدين، فإن الكروموسوم الواحد(عبارة عن سلسلتين طويلتين متشابكتين من الحامض النووي، وكل سلسلة تأتي على شكل سلم طويل محيطه من السكر والفوسفات، ودرجاته تتكون كل منها من ثلاثة مركبات. جميع هذه المركبات تأتي من أربعة مركبات عضوية أطلق عليها) A,C,G,T أدنين وسيتوسين وجوانين وثايمين) وهي كروموسومات مختلفة في أطوالها وتحتوي كل منها على عدد كبير من الجينات، والجينة هي الجزء من الكروموسوم القادر على استنساخ نفسه).

رغم الفوائد العظمى لهذا الإكتشاف إلا أن طريقه لا يخلو من صعوبات جدية، بعضها أخلاقي، لم يجد لها العلماء حلولا، وحتى لو وجدوا فإنهم(كبحوا جماح حب الاستطلاع لديهم) أزاء السؤال الأخلاقي.

الفصل الثامن: ظاهرة الإنسان والوعي

يتميز البشر عن سائر الكائنات الحية بميزات عدة يتصدرها ما نطلق عليه الوعي، ذلك التركيب العالي التعقيد الذي مكنه من السيادة على الأرض.

ويخلص المؤلف في هذا الفصل إلى بقاء الكثير من الأسئلة مفتوحة على حقيقة الوعي البشري وتطوره، وفي سياق البحث عن ماهية الوعي تتداخل ظواهر معرفية أخرى كالفلسفة أيضا مما يضفي المزيد من المتاهات.

(هل الوعي مصدر للمعرفة المؤكدة أم إنه مجرد أداة للتكيف مع الواقع المعيشي وليس له علاقة بأية حقائق؟ وكيف يكون وعي الإنسان وعاء لحقيقة مطلقة؟ أليس هذا نوعا من الغرور يجعل الإنسان مركز الكون وهدفه؟ وكيف يستطيع الوعي أن يفسر الوعي؟ وهل الحقيقة مجرد تعريفنا لما يعكسه هذا الوعي؟).

الفصل التاسع: علم الإجتماع ومختبر التاريخ

كما للمنهج العلمي مختبراته المعملية للبحث والكشف فإن علم الإجتماع له مختبره الخاص، خصوصا علم الإجتماع البشري، وهذا المختبر الذي توضع فيه الحقيقة الإجتماعية للناس هو تجليات أعمالهم وصراعاتهم وصبواتهم من خلال علاقاتهم الاجتماعية، أي تاريخهم.

ثمة الكثير من النظريات التي خرجت لبحث مشكلات المجتمع البشري منذ اليونانيين.

لقد نشأ الصراع البشري منذ أن وضع أحدهم يده على قطعة أرض وقال إنها لي. أي نشوء الملكية الخاصة. حسب ما يسوقه فلاسفة التنوير.

يستعرض الكتاب في هذا الباب شتى المراحل النظرية وتعاقبها بشأن تفسير أو تغيير الواقع البشري، وما رافقها من اكتشاف التراتب الطبقي في المجتمع البشري وتقسيمه الى طبقات متناحرة.

الفصل العاشر: الفلسفة والعلم.. الوجه الآخر للصراع

لكل من الفلسفة والعلم منهجه المختلف في التعامل مع الواقع(فبينما ينطلق الفكر الفلسفي من وجود حقيقة مطلقة ينطلق العلم من خلال التجربة التاريخية للإنسان.

وفي هذ الفصل يبحث المؤلف، أيضا، وضع المجتمع الإنساني في ضوء استعمال كل من الفلسفة والعلم أيضا للسيطرة من قبل الفئات الحاكمة، ويتوقف المؤلف مليا عند النظرية الماركسية وتفسيرها للواقع الذي تريد تغييره.

الفصل الحادي عشر:النظريات العلمية المحورية ونقد النظرية الماركسية

في هذا الفصل يتوقف الكتاب عند أهم النظريات التي تبحث كل منها في أحد فروع العلم وهي: نظرية نيوتن في الفيزياء ونظرية داروين بشأن النشوء والتطور ونظرية ماركس في التطور الإجتماعي، ويعود ثانية الى نقد النظرية الماركسية حيث توقفت، كما يرى المؤلف، عن التطور وأخذت البرجوازية زمام المبادرة في قيادة المجتمع علميا واجتماعيا، ويعترض كذلك على تهميش الماركسية للبرجوازية الصغيرة رغم ما تزخر به من طاقات كبيرة.

الفصل الثاني عشر: ما وراء العلم

وهو فصل يخص ما لا يمكن تجربته في مختبر المنهج العلمي من حقائق كثيرة جدا. ويستعرض أهمها كـ (كمبدأ التخطيء) الذي انتهجه بوبرومبدا (عدم التأكد) و(نظرية الفوضى) ليتوصل في النهاية الى أن المنهج العلمي ليس طريقا للحقيقة بل للمعرفة.وإنه ليس المنهج الوحيد للوصول الى المعرفة، والأمر يعود الى طبيعة الوجود المعقدة وخصوصا المجتمع البشري بما يزخر به من مفاهيم لا يمكن أن توضع بصيغ نهائية كالخير والجمال والحق والأخلاق ....الخ.

باختصار شديد، نحن أزاء كتاب ذي منهج جدلي ديمقراطي، كالمنهج العلمي الذي يتبناه المؤلف ولكنه لا يكف عن طرح أسئلته بشأن هذا المنهج أو سواه.

كتاب يساعدنا على تجديد معلوماتنا وترتيبها في سياق الفوضى والتناقض والعمى الذي يعيشه عصرنا، ويعيد الإعتبار للمنهج العلمي في فهم الذات الإنسانية وعلاقاتها المتشابكة مع محيطها الخارجي، وقد تم هذا للكاتب بمزيد من الأداء الناجح والروح السجالية والأسلوب الشيق.

مقترب لقراءة الديوان العراقي (*)

علي سعدون

مَن منا لم يطلع على قصيدة النثر العربية منذ خمسينات القرن الماضي وتحديداً منذ بزوغ مجلة شعر اللبنانية وما طرأ بعدها من خلخلة في الخطاب الأدبي بشكل عام و خرق للمعايير الشعرية واللغوية وهو خطاب مختلف وذو تجاوز عنيف لما سبقه من أشكال ومضامين عبّدت الطريق منذ ذلك الحين إلى ظهور أنماط كتابية مجاورة للنص الشعري لم تستطع فرض شعريتها بشكل مقنع إلا بعد مسافة زمنية ليست بالبسيطة ولكنها كانت ضرورية إلى حد بعيد، والضرورة هنا قد نعدها بقدرتها على البقاء والاستمرار وترسيخ طبيعتها وتفاصيل تشكلها كمادة أدبية حية وذات أبعاد فنية متجددة ومتنوعة ومأخوذة بحس التغيير والاختلاف إلى الآن، وكل ذلك يمثل التحول الصادم في البنية الشعرية إجراء وتنظيرا ..، لكن بوسعنا ألان أن نعترف بأن الاطلاع على قصيدة النثر العربية كان مرهونا بمراحل التأسيس وما تلاها من نماذج قليلة في الثمانينات حتى خيل لنا في تسعينات القرن الماضي إن قصيدة النثر تكاد تكون عراقية محضة ..، لا أقول ذلك بمسح شامل لما كان يصدر في الصحافة الثقافية في العراق فقط وانما ماكان يصدر عربيا أيضا والذي تتسيده شعريا قصيدة التفعيلة (الشعر الحر) وهو ما شكل حينئذ هوة واضحة بين الشعر العراقي الجديد (قصيدة النثر) وبين ما يكتب من شعر عربي ومنه قصيدة النثر المصرية التي لم نقرأ منها سوى عن مجموعة كتاب قصيدة النثر الجدد والجدل الحاصل هناك في - عام ٢٠٠٠ - عموما أمامنا الآن قصيدة نثر عربية ((مصرية)) ذات موضوع مهم للغاية والذي سيأخذ المحور الرئيس في هذه القراءة المبتسرة التي نحن بصددها ألان ، فبدءا من الموجه القرائي ((الديوان العراقي)) عنوان المجموعة المنشورة في ثقافة المدى / يتضح إن المقصود هو تدوين إجراءات المشهد برمته - الظاهر فيه والمهمل منه - من خلال ضغط الوقائع السردي البسيط كواحد من مجمل انساق المعنى الذي تشفع له أهمية البوح في خطاب يستثمر كل شيء ويستمد شعريته في النهاية من سمو ونبل الوقائع ذاتها ..، تلك الوقائع المسكونة بالوخز والتغالب والتي تجمع نثار المشهد العراقي الذي لم يسمه أحدٌ بعد ..، وقائع تنفتح على سبل تقصد المخيلة التي تصبح فائضا عندئذ لا بسبب هول الوقائع وانما بسبب الناتج الشعري الذي تفضي إليه أو تنتجه تلك الحشود من الرثاءات التي يحفل بها الديوان العراقي والتي أنشأت علاقتين مهمتين: الأولى تتمثل في تغيير وظيفة الرثاء التقليدية من البكاء في خضم المحنة إلى مشارك يستحق الرثاء هو الآخر كمشارك في النتائج ذاتها وكأن إبراهيم المصري هو ذاته ابن شارع الرشيد أو الباب الشرقي الذي يشير ويسمي ويحدس الواقع تحت وطأة الهول ذاته أو الذي يتناغم معه بألم مر:

حينما شاهدته مقطوع الأذن /
تحسست أذني وأدركت لماذا كف الغناء العراقي
عن أن يكون حاضرا قريبا من المنطق
لقد توارى الغناء إحتجاجا على قطع الآذان (مقطع٢٩)

هذه العلاقة يمررها الشاعر على إنها إيروسيته وشبقه الشخصي في نزف طويل ومعقد ومستمر إلى ما لانهاية ، وهي تأكيد على قدرة الشاعر المدفوع بحساسية الشعر العظيمة إلى الدخول في الحدث كمفعول به شأنه في ذلك شأن الذاكرة العراقية كلها والتي لاتهتم الآن سوى بمسح الدم عن الأسرة والأرصفة والأطفال .. الخ . واستنادا إلى العلاقة أعلاه يمكننا أن نتساءل: من اصبح - الأنا - ومن اصبح - الأنت - ؟؟

الصامت المشوش والخارج من عنان ايروسية الموت أم الذي تحسس تلك الايروسية حد تمثل تداعيات الموت الذي يفضي إلى نفس النتيجة .. ومما يلفت الانتباه هنا هو انه كلما امتنعت اللغة عن الاستجابة لشعرية إبراهيم المصري اجترحت لها واقعا وفضاء تتواتر فيه الرغبة في التدوين والتسمية مع القيم الجمالية التي تفترضها الشعرية العربية الجديدة بتناغم واضح بين الدال والمدلول من جهة وبين الخروج عن نظام مجاز لا يخدم أغراض نصه الطويل (الديوان العراقي) بمعنى أن لغة الشاعر هنا ضربا من ضروب النصوص القليلة التي تقترح وتأخذ سبيلها اللغوي الخاص بها دون غيرها وان كان ذلك السبيل خارج المدونة العالية التي وصلت إليها قصيدة النثر العربية عامة والعراقية بشكل خاص وسنشير إلى ذلك لاحقا .. اعني انه يأخذ لنفسه مساحة من الحرية والعبث بفوضى الراهن العربي المقيت تلك الحرية التي تصلنا حتما كمنتجين للنص بقراءة فاعلة ومجدية

((حين اقرأ الشعر أمتع نفسي بأقصى قدر من الحرية، حرية تجردي من أي مفهوم أو عرف أو حدود لمساحة القول الشعري ، مع هذه الحرية وبها وحدها أستطيع أن استمتع بقراءة الشعر ، في ضوء ما يفرضه هذا الشعر وما يدل به على مواطن شعريته وأهدافها وأساليب بلوغها الشعر)) ** لقد عمل الشاعر على تحريك مجموعة الحواس لدى القارئ - العربي - على وجه الخصوص وهو المخاطب في مقطعات الديوان اكثر - منا - من خلال مجموعة استهلالات ووصايا وأسئلة:

داخل كل عراقي حياة كاملة لهذا يبدو إنسانا غير آيل للسقوط (نص ١٥)
في كل بلد عربي قائد ضرورة إذا اختفى فسوف ينهار كل شيء (نص ٢٠)
من يحب العراقيين من الغرباء فليرحل عنهم (نص ٢١)
لماذا لا نتذكر العراق إلا مقرونا بالحجاج (مقطع ٣٨) أتعلمون لماذا لم يستقبل العراقيون الدبابة الأمريكية بالورود (مقطع ٧٢)

ثمة خبرة في التعامل مع الوقائع بدءا من التذكر ومرورا بالنسيان وصولا إلى الفجيعة التي يطلقها الشاعر مجتمعة وبذا فهو يمد وقائعه - وقائعنا - بحيوية تتفاعل مع الإزاحة التي يتوخاها في اكثر من مقطع من مقطعات الديوان تلك الإزاحة ذات التأثير الموضوعي أولا ومن ثم التأثير الشعري .. ، بمعنى إن مثل هكذا خبرة تبرر أسلوب الأداء غير العادي والممتلئ جرأة في استخدامه لتراكيب عادية وجمل غاية في - الحكائي اليومي - العادي البسيط إذا جاز التعبير والذي سيشكل في نهاية المطاف أداء عاليا للأسباب آنفة الذكر ذلك لان أداء الوقائع هنا يرتبط بشكل أو بآخر بالفعل الشعري ذي التأثيرات الحسية والنفسية والجمالية مستندين في ذلك كله إلى منظومة الرؤية لدى الشاعر وآليات اشتغاله التي انبثقت عن حميمية في الحس والأداء بعيدا عن القيم البلاغية التي تتعثر عند تخومها إشارات المعنى وإيحاءاته المختلفة والمتعددة ..، وعليه فأن الشاعر هنا يقدم وقائع تقدم نفسها وتعلن عن شعريتها . هنا صار لزاما علينا أن نتساءل عن مدى اطلاع الشاعر إبراهيم المصري على واقع قصيدة النثرالعراقية وتحديدا تجارب عراقية تعاملت مع الوقائع بأبسط التقنيات واعقدها: تجارب مثل خالد مطلك في نصوصه التي اعتمدت الوقائع كمادة رئيسة في اكثر من نص ((هذا أنا حزين في كراج النهضة... أو هذا رأسي يطل من سيارة ايفا ... الخ)) كذلك عبدالزهرة زكي في نص هذا خبز وعبدالخالق كيطان في (نازحون وصعاليك) بغداد .. وآخرين قليلين ، مع الاختلاف في الأداء الشعري بين تجربة الشاعر إبراهيم المصري وبين تجارب الشعراء العراقيين المذكورين هذا الاختلاف الذي يصل حد التقاطع في طرائق الاشتغال المتنوعة في التعامل مع الوقائع بين الشعراء العراقيين أنفسهم.. على أية حال لقد كان الشاعر وصيا على لغته وبذا قدم إحساسا عاليا بالوقائع ولم تكن لغة قصيدة النثر السائدة ذات وصاية عليه في مجمل نصوص الديوان ، تلك الوصاية التي تمارسها اللغة الشعرية السائدة على تجارب شعرية عربية كثيرة بسبب هيمنة خطابها وصعوبة الخروج عنه -ولا أقول هنا باستحالة الخروج -

أما العلاقة الثانية فتتمثل بأهمية التسجيل كعطاء تاريخي وفني ، والتاريخي هنا هو استلهام لمعطيات زمنية كأجتراح فهم خاص (شعري) للواقعة بتحولاتها الأيديولوجية والتاريخية كإنتاج فلسفة إزاء ما يحدث والذي يحدث غني برؤى ومضامين متعددة ومختلفة ، فلسفة تفسح لنفسها مساحة لتسمية مفاهيم الوقائع دون أن تكتفي بوصفها كحدث في زمن - ما - أو ماض يضيق الأفق إزاءه بسبب غيابه أو زواله . لذلك عمل الشاعر ومن خلال المعطيات التاريخية لديوانه على جعل تلك الوقائع تنشغل بإفراغ الذاكرة العراقية —العربية من ادران أيديولوجيا مقيتة ولو أحصينا ثيمات الإفراغ هذه فسنجدها موزعة على اكثر من ٤٠ نصا من نصوص الديوان وهي إشارة إلى الخلل الأيديولوجي في الذهنية العربية عموما في موضوعة العراق كواحدة من الرؤى التي انبثقت عن الشاعر لتصحيح رؤية تكاد تكون استراتيجية غير قابلة للدحض - شعريا في الأقل - ومرد ذلك أيضا يعود إلى حساسية الوقائع ذاتها التي يسجلها الشاعر إبراهيم المصري كأجتراح لمفاهيم تعد الأكثر استحقاقا للرثاء - رثاء الإنسان العربي - بوجه عام .....

★ الديوان العراقي مجموعة شعرية للشاعر إبراهيم المصري / جريدة المدى/ المدى الثقافي ٢٤ تموز ٢٠٠٤
** مقدمة الديوان العراقي / تقديم الشاعر عبدالزهرة زكي / المصدر نفسه

ثلاث قصائد

خليل الأسدي

(١)
وبقيت
وبقيت لا أدري إلى أي
الحروب..
تقود أزمنتي الحروب..
مذ كان ثمة بعض يوتوبيا
أطارد سربها...
وأعيش في وهم اكتناز دم
الممالك...

والملوك..
بقيت لا أدري إلى أي
الحروب..
تقود أزمنتي الحروب.

(٢)
وأنا أحدق
وأنا أحدق ساهما..
مستلقيا..
متأملاً جسد الخراب..
فكرت:

كم معنى لهذا الموت..
كم قتلاً تناسل في الشوارع..
كم دماً أضحى كما
الطوفان..
كم نحراً بلا معنى..
وكم صلباً بلا صلبان..؟
وأنا أحدق ساهماً..
مستلقياً..
متأملاً جسد الخراب.

(٣)
رأيت عرضا
من حيث لا أدري..
رأيت عرضاً..
ملامحي يغرقها الطوفان..
ذكرني المشهد أني هكذا..
ما قبل نيرونٍ..
وروما..
ما قبل أن تكون للطوفان
أسطورة..
قد كنت طوفان دمٍ..
وكنت ألواحي..